﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ [الأعراف: 59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

محاورةُ نُوحٍ وقومِه، تجسيدٌ لما طابَ وما خَبُثَ

لمّا قرَّر ﷻ في سالفِ الآياتِ البراهين والحججَ على بدايةِ الخلقِ ونهايته؛ أتبعَ ذلك بقصصِ الأنبياءِ - ﷺ -[1]، وفي ذلك يقولُ أبو حيّان: "لمّا ذكر في هذه السّورة مبدأ الخلقِ الإنسانيِّ وهو آدم ﷺ وقصَّ من أخبارهِ ما قصَّ، واستطردَ من ذلك إلى المعادِ ومصيرِ أهلِ السَّعادةِ إلى الجنَّة، وأهل الشَّقاوةِ إلى النّار، وأمره تعالى بتركِ الَّذين اتَّخذوا دينَهم لعبًا ولهوًا، وكان من بعث إليهم رسول الله ﷺ، أوَّلًا غير مستجيبينَ له ولا مصدِّقين لما جاءَ بهِ عن الله قصَّ تعالى عليه أحوال الرُّسلِ - الَّذين كانوا قبله - وأحوالَ من بُعثوا إليهِ على سبيلِ التَّسليةِ لهُ - ﷺ - والتَّأسّي بهم، فبدأ بنوحٍ"[2]، فهذه القصصُ سيقت مساقَ الدَّليل التّاريخي الذي يحقِّق ويقرِّر أنَّ في النّاس الخبيثَ والطَّيِّب[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: (رسل) أصلٌ يَدُلُّ على الانْبِعاثِ والامْتِدادِ، أرْسَلْتُ الطائرَ من يدي: أطلقتُه، وأرْسَلْتُ رَسولًا: بعثْتُهُ برسالة يؤدّيها، والإرْسالُ يقالُ في الإنسان، وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة، وقد يكون ذلك بالتَّسخيرِ، كإرسالِ الرّيح، والمطر، وقد يكونُ ببعث من له اختيارٌ، نحو إرْسالِ الرُّسل، قال تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الانعام: 61][4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/293.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/81، وينظر: المراغي، تفسير المراغي: 8/188، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876.

(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/425، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/234، والآلوسي، روح المعاني: 4/387.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح: (رسل).

2) ﴿نُوحًا﴾: نوحٌ: اسمٌ للنَّبيِّ المعروفِ عليه السلام ويقال له: آدمُ الثّاني، وهو أبو البشر؛ لأنَّ أهل الأرض غرقوا بالطّوفان، ثمَّ جاء النّاسُ من نسله، فولد ثلاثةَ أولادٍ: سامَ وحامَ ويافثَ، وهو غير مشتقٍّ لعجمته، وإنَّما صُرف لخفَّته[1].

3) ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾: (عبد) أصلٌ يدلُّ على لينٍ وذُلٍّ، والعُبوديَّة: الخضوعُ والذُّلُّ، وهي إظهار التَّذلُّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّل، ولا يستحقُّها إلّا من له غاية الإفضال، وهو اللّهُ تعالى، والْعَبْدُ: الإنسانُ، حُرًّا كانَ أو رَقيقًا، يُذْهَبُ بِذَلِكَ إلى أنَّه مَرْبوبٌ لِباريهِ، ولا يُقالُ: عَبَدَ يَعْبُدُ عِبادة إلا لِمَنْ يَعْبُد اللّه[2].

4) ﴿أَخَافُ﴾: (خوف) أصلٌ يَدُلُّ على الذُّعْرِ والْفَزَعِ، الخَوْف: توقُّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونة، أو معلومة، كما أنَّ الرَّجاء والطَّمع توقُّع محبوبٍ عن أمارةٍ مظنونة، أو معلومة، ويضادُّ الخوفُ الأمنَ، ويستعمل ذلك في الأمور الدُّنيوية والأخرويَّة[3]، والخوفُ هو ذعرٌ معقولٌ يبعثُ على التَّبصُّر بعواقب الأمر، والتَّأهُّب لخطرٍ محدق.

5) ﴿عَظِيمٍ﴾: (عظم) أصلٌ يدلُّ على كِبَرٍ وقوَّة، عظُم الشَّيء عِظمًا: كَبُرَ، فهو عظيمٌ. العِظَم: ضدُّ الصِّغر، وعظَّمه: فخَّمه وكبَّره، واستعير لكلِّ كبيرٍ، فأُجري مجراه محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنًى، قال تعالى: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[4].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

دَعـــوةُ نُـــوحٍ قومَه للتّوحيدِ العتيدِ، والحَذَرِ منَ الخُسرانِ في يومِ الوعيدِ

يخبرُ اللّهُ تعالى أنَّه قد بعث نوحًا إلى قومه؛ داعيًا إلى توحيدِ

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (نوح).
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (عبد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (رسل).
(4) الجوهريّ، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفِيروزابادي، البصائر: (عظم).

اللّه سبحانه وإخلاصِ العبادة له، فدعاهم مشفقًا عليهم إلى عبادة اللّه وحده، مذكِّرًا إيّاهم بأن ليس لكم من إلهٍ يستحقُّ العبادة غيره ﷻ، فأخلصوا له العبادةَ، فإن لم تفعلوا، وبقيتُم على عبادة أوثانِكم، فإنّني أخاف أن يحلَّ عليكم عذابُ يومٍ يعظمُ فيه بلاؤكم[1].

فوائدُ القَصَصِ القُرآنيّ وأغراضُهُ:

القَصَصُ القرآنيُّ مَقصدٌ أثيلٌ، ومنهجٌ أصيلٌ، لبيانِ عظَمةِ المتصرِّفِ الجليلِ

ذكر أئمَّةُ التَّفسير أنَّ للقصصِ القرآنيِّ غاياتٍ وفوائدَ: **أوَّلها:** الاعتبارُ بأحوال السّابقين والوثنيّين الَّذين اعترضوا على الأنبياءِ، **وثانيها:** بيانُ ما نزل بالمشركين - الذين كفروا باللّهِ، وكذَّبوا الأنبياءَ، وعاندوهم، وآذوا مَن اتَّبعوهم - من عذابٍ حُتِّم عليهم، ليعلمَ الوثنيّون الذي يخاطبون النَّبيَّ ﷺ أنَّ اللّه تعالى يمهلُهم ولا يهملُهم، **وثالثها:** أنَّ الآياتِ مهما تكن شديدةً قارعةً حسيَّةً؛ لا تجعلُ من القلب الجاحدِ مؤمنًا، **ورابعها:** التَّسريَةُ عن النَّبيِّ ﷺ بأنَّه لم يكن أوَّل من كُذِّب، **وخامسها:** أنَّ في نبأ كلِّ نبيٍّ من الأنبياء تساقُ الحججُ على التَّوحيدِ، والتَّنبيهِ إلى آيات اللّهِ تعالى في الكون[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ جُملةِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ عمَّا قبلَها:

التَّنبيهُ بعد ذِكرِ النِّعَمِ على الاعتبارِ، بما حلَّ بالأقوامِ المُكذِّبين الفُجّارِ

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ استئنافٌ انتقلَ به الغرضُ من إقامةِ الحجَّة والمنَّةِ المبتدئة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 10]، وتنبيهِ أهل الضَّلالة أنَّهم غارقون في كيدِ الشَّيطان الذي هو عدوُّ نوعِهم، من قوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: 16 - 33]، ثمَّ بالتَّهديدِ بوصفِ عذابِ الآخرةِ وأحوالِ النّاس فيه، وما تخلَّل ذلك من الأمثالِ والتَّعريضِ إلى غرضِ

(1) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/158.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876 - 2877، وينظر: المراغي، تفسير المراغي: 8/188.

الاعتبارِ والموعظةِ بما حلَّ بالأممِ الماضية؛ فهذا الاستئنافُ له مزيد اتِّصالٍ بقولهِ في أوائل السّورة: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأعراف: 4]، وقد أفيضَ القولُ فيه في معظم السّورة[1].

غَرَضُ التَّأكيدِ في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾:

ما تَضمّنَتْه قصَّةُ قومِ نوحٍ من أخبارٍ، كالّذي أبْداهُ مُشركو العربِ منَ العُتوّ والإنكارِ

جاء قوله جلَّ شأنه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ مصدَّرًا باللّام وحرف التَّحقيق (قد) المفيدين للتَّوكيد، والجملةُ "جوابُ قسمٍ محذوفٍ، أي: واللهِ لقد أرسلنا، واطِّراد استعمالِ هذه اللّام مع (قد) لكون مدخولِها مَظِنَّةً للتَّوقُّع الذي هو معنى قد، فإنَّ الجملةَ القسَميَّةَ إنَّما تُساق لتأكيدِ الجملةِ المُقسَم عليها"[2]، والغرضُ من ذلك: تأكيدُ الخبر بالقسم[3]؛ لأنَّ المرادَ من هذه الأخبارِ تشبيهُ أحوال الأممِ الَّتي كذَّبت رسلَها بحال مشركي العربِ في تكذيبهم رسالةَ النَّبيِّ ﷺ، وتقترنُ اللّام الواقعةُ في جوابِ القسم بـ (قد)؛ لأنَّ القسم يهيِّئُ السّامعَ لتوقُّع خبرٍ مهمٍّ، فيؤتى بـ (قد) الدّالِّ على التَّحقيق لتدلَّ على التَّحقيق؛ لأنَّها تدلُّ على تحقيقِ أمرٍ متوقَّع[4]، وتحقيقها متأتٍّ من اقترانها بالفعلِ الماضي.

سِرُّ اخْتِيارِ لفْظِ الإرسالِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ دون (البعثِ):

نُوحٌ حُمِّل رسالةً للبلاغ، والإرسالُ تصريحٌ بالرِّسالةِ المنزّلةِ منَ الله

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالإرسال دون البعثِ في قوله تعالى ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾؛ لأنَّ الإرسالَ لا يكون إلّا برسالةٍ وما يجري مجراها"[5]، فلمّا كان نوحٌ مرسلًا برسالةٍ يبلِّغها إلى قومه؛ جاء التَّعبيرُ بالإرسال دلالةً على الرِّسالة، أمّا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾، فقد صدَّر بالبعثِ دون الإرسال؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235، وينظر: الزمخشري، الكشّاف: 2/112، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/575.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/81، وينظر: العليمي، فتح الرحمن: 2/535.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187 - 188.
(5) العسكري، الفروق، ص: 289.

لفظَ الرَّسول في ختامِ الآية يتضمَّن الرِّسالة، فعبَّر في صدر الآية بالبعثِ الدالِّ على الإثارة والتَّوجيه[1]؛ للدَّلالة على توجيهه الرُّسل إلى قومِهم، فدلَّ البعث على التَّوجيه، ودلَّ الرَّسول على تضمُّن الرِّسالة.

دَلالةُ ذِكْرِ قيدِ: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾:

التَّلطُّفُ بالمرسَلِ إليهم مَسلكُ جميعِ الرِّسالاتِ

ذكرَ قيد ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ تصريحًا بأنَّ المقصودَ من الرِّسالة هم، وفي ذلك تشريفٌ لهم بقصدهم على الخصوصِ بالرِّسالة، كما كان القرآنُ تشريفًا لقوم النَّبيِّ ﷺ؛ إذ قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44] كما أنَّ في ذكر هذا القيد إيماءً إلى لطفِ اللّٰهِ تعالى بهم؛ إذ أرسل إليهم رسولًا منهم، كما قال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، فهم يعرفونه ليقعَ الاستئناسُ بين المرسَل والمرسلِ إليهم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ اللّٰه تعالى قد يرسل رسولًا إلى قوم، وهو ليس منهم، كما أرسل موسى عليه السلام إلى فرعونَ، بداعي أنَّه ينطقُ بلسانهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4].

دَلالةُ العطْفِ بحرف (الفاءِ)، في: ﴿فَقَالَ﴾:

أمـرُ الـدَّعـوةِ مَـبـنـيٌّ عـلى الفَوْرِ والمبادرةِ، لبلاغِ مَضامِينِه النّاهيّةِ الآمرةِ

جاءتِ الجملةُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ معطوفةً على قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بالفاء للدَّلالةِ على أنَّ "ذلك القول صدر منه فورَ إرسالِه، فهي مضمونُ ما أرسلَ به"[2]، فهو لم يتأخرْ في تبليغ الرِّسالة.

تَوجِيهُ المتشابهِ اللَّفظِيِّ:

جاء قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مقترنًا بالفاء، وكذلك في قوله: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون: 23]، أمّا في قصّة هودٍ وصالحٍ في سورة الأعرافِ، فجاءت

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بعث).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/188.

بلا فاءٍ، قال تعالى: ﴿*وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: 65]، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: 73]، وفي تعليل ذلك جاء في الدُّرِّ المصون: "وجيء هنا بفاءِ العطفِ حيثُ قيل: ﴿فَقَالَ﴾، وكذا في (المؤمنين)، وفي قصَّة هودٍ وصالح وشعيبٍ هنا بغير فاءٍ، والأصلُ الفاء؛ وإنَّما حُذِفَتْ تخفيفًا وتوسُّعًا واكتفاءً بالرَّبط المعنويِّ، وكانت الثَّواني فما بعدها بالحذف أوْلى"[1].

تماسكُ النَّصِّ وحَبْكتُهُ، تُغْنِي في الرَّبْطِ عنِ الحرفِ المَسوقِ لذلك

فائِدةُ إضافةِ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى ضَميرِ المتكلِّمِ المحذوفِ:

خاطبَ نوحٌ عليه السلام جميع قومهِ متودِّدًا لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فكان الخطابُ لكلِّ قومه؛ "لأنَّ الدَّعوة لا تكون إلّا عامَّة لهم، وعبَّر في ندائهم بوصف القوم لتذكيرهِم بآصرةِ القرابةِ، ليتحقَّقوا أنَّه ناصحٌ ومريدٌ خيرهم ومشفقٌ عليهم، وأضافَ (القوم) إلى ضميرهِ للتَّحبيب والتَّرقيق لاستجلاب اهتدائهم"[2]، وخاطبهم بالنِّداء تنبيهًا إلى ما سيلقيهِ إليهم، وأنَّه أمرٌ يهمُّ الجميعَ، و"في ندائه قومه تنبيهٌ لهم لما يلقيه إليهم واستعطافٌ وتذكير بأنَّهم قومُه، فالمناسبُ ألّا يخالفوه"[3]. فالتَّعبيرُ بأنَّهم قومُه إشارةٌ إلى حرصِه عليهم حثًّا وحثٌّ لهم على تصديقه. وحُذِفت ياءُ المتكلِّم، فلم يقل: (يا قومي)؛ للتَّخفيف لسكونِها وسكونِ ما بعدها.

بيانُ تودُّدِ نوحٍ إلى قومِه، لِحثِّهم على تصْدِيقهِ واتِّباعِ هِدايته

عِلَّةُ إطْلاقِ الأمرِ بالعبادةِ دونَ التَّقْييدِ بالتَّوحيدِ:

جاءَ الأمرُ بالعبادةِ مطلقًا عن قيد التَّوحيدِ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فلم يقل: (اعبدوه وحده)، فتركَ تقييدَ العبادةِ بالتَّوحيدِ؛ "للإيذانِ بأنَّها العبادةُ حقيقةً، وأمّا العبادةُ بالإشراكِ

العبادةُ الحقَّةُ، هي المُتضمِّنةُ معنَى التَّوحيدِ، وتَجلّياتِه في المعاملةِ

(1) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/354 - 355، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/82.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/188.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/82، والآلوسي، روح المعاني: 4/389.

فليستْ منَ العبادة في شيءٍ"[1]، ويُضاف إلى ذلك أنَّ التَّوحيدَ قد ذُكرَ عقبَ الأمر بالعبادة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، فاكتفى به عن تعليقِ العبادةِ بهِ وحدَه.

مُوجِبُ فَصْلِ جُملةِ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ عمَّا قبلَها:

بـيـانُ عِـلَّـةِ اخْتِصاصِ الله تعالى بالعبادَةِ

جاء قولهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مفصولًا بلا عاطف بفاءٍ ولا غيرها؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ مسوقٌ لبيان علَّة اختصاصهِ جلَّ شأنه بالعبادة[2]، ورفض ما سواه، فكانت في غايةِ الاتِّصال[3]، وهو المعروفُ بشبهِ كمال الاتِّصال.

مَوقعُ نفْيِ نوحٍ ألوهيّةَ غيرِ الله، في مُراعاةِ مُقتضَى حالِ قومِه:

دعوةُ نوحٍ ما بين الشِّركِ والوثنيَّةِ المحْضةِ، وبيانِ الـحـقِّ عـلى الاحْتِمالَيْنِ

جاءَ قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ محتملًا أنَّه "خُرِّج مخرج التَّسليم الجدلي؛ فإن كانوا مشركينَ؛ كان أمره إيّاهم بعبادة اللّه مقيَّدًا بمدلولِ قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، أي: أفردوه بالعبادةِ ولا تشركوا معه الأصنامَ، وإن كانوا مقتصرينَ على عبادةِ الأوثان؛ كان قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تعليلًا للإقبال على عبادة اللّه، أي: هو الإلهُ، لا أوثانكم"[4].

فائِدةُ دُخولِ ﴿مِّنْ﴾ على النَّكرةِ بعد النَّفْي:

تـأكـيـدُ الـنَّـفْـيِ وشُمولُه شُمولًا اسْتغراقيًّا، من فصيحِ البيانِ

قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، جاء النَّفي متبوعًا بـ ﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ لاستغراق النَّفي[5]، حيثُ دخلت ﴿مِّنْ﴾ على النِّكرة لتأكيد النَّفي، والمعنى: "ما لكم إلهٌ غيرُه"[6]؛ فمجيءُ النَّكرة في سياق النَّفي مجرورةً بـ ﴿مِّنْ﴾ يدلُّ على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/82، والزمخشري، الكشّاف: 2/113، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.
(3) ابن عادل، اللباب: 9/176.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/189.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/434.
(6) الواحدي، البسيط: 9/196.

شمول النَّفي وعمومهِ، فليس ثمَّة إلهٌ على الإطلاق إلّا الإلهُ الذي يستحقُّ العبادة على وجه الحقِّ، وهو الخالقُ العظيم، وبِه بطلَت عبادةُ كلِّ إلهٍ حجريٍّ، أو بشريٍّ، أو غيبيٍّ، أو فكريٍّ، ممّا يتصوَّره العقل البشريُّ في الحسِّ أو الوَهم سوى اللّه تعالى.

الفرقُ بين قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾:

الاستغراقُ في نفي الألوهيَّةِ وإثباتُها لله وحدَه، دليلٌ على غَطرسةِ الكُفرِ

استُعمل في القرآنِ الكريم الاستثناءُ بأداة الاستثناءِ ﴿إِلَّا﴾ كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [آل عمران: 62]، وبأداةِ الاستثناءِ ﴿غَيْرُهُۥ﴾ كما في هذه الآيةِ، وهاتان الأداتان (غير)، و(إلّا) تُستعملان في الاستثناء، وبينهما فرقٌ، حيث يُلاحظ أنَّ كلمة ﴿غَيْرُهُۥ﴾ أشدُّ نفيًا؛ لأنَّها موغلةٌ في الإبهام، فتشمل كلَّ شيءٍ باستثناء ما أُضيفت إليه، فهو المستثنى نفسُهُ مع المضاف إليه، والمستثنى بأداة (إلّا) يأتي بعدَها، فهو مستثنًى بواسطتها، وفي الآيةِ الكريمة سبق الاستثناءَ النَّفيُ، و﴿مِّنْ﴾، وتنكيرِ ﴿إِلَٰهٍ﴾، وكلُّ ذلك يدلُّ على العمومِ، ثم ختمَ بالإبهام، فجاءتِ العبارةُ على الغاية في نفي الألوهيَّة عن غير اللّه تعالى.

عِلَّةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ عمَّا قبْلَها:

تعليلُ الأمرِ بالعبادةِ والتَّوحيدِ، لخوْفِ نُوحٍ على قوْمِه

جاءتِ الجملةُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بلا عاطفٍ مفصولةً عن قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾؛ لأنَّها جاءت لبيان علَّةِ الأمرِ بالعبادةِ والتَّوحيدِ، فهي مستأنفةٌ بيانيًّا، تبيِّن الدّاعي "إلى عبادته؛ لأنَّه هو المحذورُ عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دونِ اللّهِ"[1].

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/113، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235، والآلوسي، روح المعاني: 4/388.

فائِدةُ إضافةِ (إنَّ)، إلى ياء المتكلِّم في قولِه: ﴿إِنِّيٓ﴾:

الدَّعوةُ المخلَصةُ للـه، تُحرِّكُ المخاوفَ على المَدعُوِّ من سُوءِ عُقبَاه

جاءت الجملةُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ مؤكِّدةً بـ (إنَّ) تأكيدًا لمضمون الجملة الاسميَّةِ الَّتي تعبِّر عن خوف نوحٍ عليه السلام على قومه، وذلك يدلُّ على أنَّه "كان جازمًا بأنَّ العذابَ ينزل بهم، إمّا في الدُّنيا، وإمّا في الآخرة؛ إن لم يقبلوا ذلك الدّين"[1]؛ فلذا لم يقُل: (أنا أخاف عليكم)؛ لأنَّها خاليةٌ عن ذلك الجزمِ والتَّأكيد، ودخلت (إنَّ) على ضمير المتكلِّم؛ لبيان أنَّ الخوفَ إنَّما هو خوفٌ ذاتيٌّ صادرٌ عن خشيتِه على قومِه وحرصِه عليهم، وأنَّه ليس مأمورًا به من اللهِ تعالى أمرًا مباشِرًا، وهذا يدلُّ على أنَّ على الدُّعاةِ أن يحرِصوا على المدعوّين حرصًا خاصًّا.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿أَخَافُ﴾ دونَ: (أحذِّركم):

خوفُ الأنبياءِ خوفُ شفقةٍ وحنانٍ، لا خوفُ تهديدٍ بالشّتيمةِ والهوانِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بالخوف في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ دون التَّحذيرِ؛ فلم يقُل: (إنّي أحذِّرُكم)؛ لأنَّه عبَّر عن شفقتِه عليهم، "ولم يقطع حنوَّا عليهم، واستجلابًا لهم بلطفٍ"[2]؛ وذلك لأنَّ التَّحذيرَ يأتي من رتبةٍ أعلى، والأنبياء دعوتُهم لعامَّةِ النّاس، يخاطبونهم خطابًا ليِّنًا خاليًا من العلوِّ والكبرياء، صادرًا عن شفقتهم على الخلقِ، وهذا يُناسِبه التَّعبيرُ بالخوف دون التَّحذيرِ، والتَّحذيرُ يليق بالملوكِ والحكّام.

دَلالةُ صِيغةِ المضارعِ، في قولِه: ﴿أَخَافُ﴾:

الأنبياءُ خَوفُهم عـلَى الـخـلْـقِ، مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ لا يَنفَصِمُ

التَّعبيرُ عن خوفِه عليهم بالفعل المضارعِ يدلُّ على أنَّه كان يخافُ عليهم باستمرارٍ، فهو خوفٌ يتجدَّد ويستمرُّ، وهذا متناسبٌ مع حرصِه عليهم المعبَّر عنه في الآيةِ، ويدلُّ على إصرارِه على الدَّعوة وابتغائه الخيرَ لقومِه.

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/388، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/82.

سِرُّ اسْتِعمالِ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

التَّعبيرُ بحرف الجرِّ (على) الدّالِّ على الاستعلاءِ، مع تعلُّقه بالخوفِ يدلُّ على شدَّةِ خوفِه عليهم، فهو خوفٌ متمكِّنٌ منه عليهم، وفي ذلك إظهارٌ لشدَّة شفقتِه على النّاس رغمَ شدَّة معارضتِهم له، وهو ليس خوفًا عامًّا، بل خوفٌ متعلِّق بهم.

خـوفُ الأنـبـيـاءِ كخَوفِ الآباءِ، لا يُثْنيهِ الصِّياحُ، ولا تَـدفـعُـه الرِّياحُ

بَلاغةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾، على المفعولِ به ﴿عَذَابَ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قدَّم فيه الجارَّ والمجرورَ على المفعولِ به اهتمامًا بالمخوفِ عليه دون المخوفِ منه، فهو لم يخشَ العذابَ لذاتِه، بل لكونِه متعلِّقًا بقومه، فكونهُم قومَه هو عِلَّةُ خوفِ العذاب.

مـنْ أهـمّـهُ أمرُ أحـــدٍ؛ خـافَ عليه مـنَ الأذَى والكَمدِ

دَلالةُ وَصْفِ اليومِ بالعظيمِ:

في قولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وصفُ اليومِ بالعظيمِ، يدلُّ على عظمةِ العذابِ، والمرادُ باليوم: إمّا يوم القيامةِ، أو يوم الطُّوفان[1]، وكلاهما متَّصفٌ بالعظمةِ، فإذا كان الظَّرفُ عظيمًا؛ فإنَّ كلَّ ما يكون في ذلك اليومِ سيكون متَّصفًا بالعظمةِ على وجهِ القطعِ والمبالغةِ؛ فـ "وصفُ اليومِ بالعظمِ لبيانِ عظمِ ما يقعُ فيه"[2]؛ ولأنَّ الإضافةَ تدلُّ على أنَّه عذابٌ خاصٌّ بذلك اليومِ المتَّصفِ بالعظمةِ.

عَـظَـمـةُ الـيـومِ راجعةٌ إلى هوْلِ المشاهدِ الّتي سوفَ تقعُ أثناءَه

سِرُّ وصْفِ اليومِ في الأعْرافِ بـ ﴿عَظِيمٍ﴾، وفي هودٍ بـ ﴿أَلِيمٍ﴾:

جاءَ وصفُ العذابِ بكونِه واقعًا في يومٍ عظيمٍ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وفي سورة هودٍ وُصِفَ بكونه واقعًا في يومٍ أليم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦﴾ [هود: 26]؛ وذلك لأنَّه في سورة هود قد ذكرَ العذابَ فيها بالتَّفصيلِ،

وُصِـفَ الـيـومُ بالعظيمِ عندَ الإجـمـالِ، وبالأليمِ عندَ التَّفصيلِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/295.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.

وذلك يظهرُ عظمته؛ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠ *وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ [هود: 40 - 42]، فلم يصرِّح بصفةِ العظمةِ لدلالةِ المقامِ عليها، وذكر صفةَ الألمِ؛ لأنَّ السّياقَ يبيِّن ما لاقى نوحٌ ﷺ من قومه من آلامٍ، فجاءَ الوصفُ بكونهِ أليمًا ليناسبَ تلك الآلامَ الَّتي لاقاها منهم، وفي سورةِ الأعرافِ جاء وصفُ العذابِ بأنَّه عذابُ يومٍ عظيمٍ؛ لأنَّ تفصيلَه لم يُذكر كما ذكرَ في سورةِ هودٍ، فوصفَهُ بالعظيمِ للإخبارِ بتلك الصِّفةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإرسالُ) و(البعثُ):

كـلُّ إرسـالٍ بـعـثٌ، وليس كلُّ بعثٍ إرسالًا

البعثُ أعمُّ من الإرسالِ؛ لأنَّه "يجوز أن يبعثَ الرَّجل إلى الآخرِ لحاجةٍ تخصُّه دونك، ودون المبعوثِ إليه، كالصَّبي تبعثُه إلى المكتب، فتقول: بعثْتُهُ، ولا تقولُ: أرسلتُهُ؛ لأنَّ الإرسالَ لا يكون إلّا برسالةٍ وما يجري مجراها"[1]، وفي قولهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ آثر التَّعبيرَ بالإرسالِ؛ لأنَّه يتضمَّن رسالةً؛ فمعنى "الإرسال: أنَّه تعالى حمَّله رسالةً يؤدّيها، فالرِّسالة على هذا التَّقدير تكون متضمِّنةً للبعث"[2].

(1) العسكري، الفروق، ص: 289.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/295، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/82.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»